

الترجمة الأدبية من طموح الهيمنة إلى أفاق الغيرية -مقاربة نقدية-

*Literary translation from the hegemonistic pretensions to
Altruism's perspectives: a critical approach*

مصطفى ولاش

جامعة لونيبي علي

البلدية 2 تبسة/ الجزائر

Moustaphaoullache@gmail.com

محمد جعيدي*

جامعة يحيى فارس

المدينة/ الجزائر

Mmedmoh.712@gmail.com

تاريخ الارسال: 2024/02/21 تاريخ القبول: 2024/10/09 تاريخ النشر: 2024/12/20

الملخص:

لطالما شكلت الترجمة الأدبية سبيلا من سبل التّواصل والتّقارب الحضاري بين الشعوب، وفتحت أفاقا جديدة نحو الغيرية ومد جسور التّواصل والتّلاقى بين الآداب والحضارات، محقّقة بذلك الرسالة الأسمى التي يطّلع إليها الأدب، في محاولة لرأب الصدّع ونبذ شتى الاختلافات والانقسامات القطرية، هذا وقد مرّت هذه الحركة بعدد المراحل التي سايرت الوضع السّائد وما يحكم العالم من تكتلات وقوى. ومن الجلي أنّ الدّوافع التي تؤدّي إلى التّرجمة في محورها (شرق/غرب) تختلف عن الدّوافع التي تنتج التّرجمة الأدبية بمحور (غرب/شرق).

سنحاول في هذه الورقة البحثية تسليط الضّوء على حركة التّرجمة الأدبية بمحورها وتحديد الدّوافع والمآلات التي صار إليها الفعل التّرجمي في محور زمني يمتدّ في إطار العصر الحديث، متّبعين منهجا استقرايا نقديا، منطلقين من إشكالية محوية مفادها: كيف واكب مسار الترجمة الأدبية المستجدات الحاصلة على مستوى الحركة الأدبية العالمية وما هي أبرز المراحل التي شهدتها هذه الحركة؟ منطلقين من فرضية كون الترجمة في المقام الأول هي عبارة عن نقل وتحويل للألفاظ والمعاني من لغة إلى لغة أخرى، قاصدين التّوصل إلى ملمح واضح حول التّرجمة (بداياتها، عوائقها، مآلاتها)

الكلمات المفتاحية: الترجمة الأدبية، التّقارب، الهيمنة، الغيرية، المآلات، الدّوافع.

* المؤلف المرسل.

Abstract:

Literary translation has oftentimes been a means of communication and civilizational rapprochement between peoples, as it has opened new horizons towards otherness and building bridges of communication and convergence between literatures and civilizations, hence achieving the supreme message that literature aspires to, positively in an endeavour to conciliate and reject various differences and country divisions, as this movement has passed through many stages that have followed the prevailing situation and the ruling of the world of blocs and forces. Above and beyond, it is understandable that the motives leading to translation in its axis (East/West) are different from the motives that produce literary translation in its axis (West/East).

Besides, we will try through this research paper to shed light on the literary translation movement with both axes, and determine the motives and destinies to which the translation act has become in a temporal axis that extends within the scope of the modern era, following an inductive and critical approach, and proceeding from a crucial problem, which stands for: How did the course of literary translation keep pace with the latest developments taking place at the world literary movement? and what are the most prominent stages witnessed by this movement? Starting from the hypothesis that translation stands primarily for a transfer and transformation of words and meanings from one language to another, aiming to attain a clear insinuation about the translation (beginnings, obstacles and destinies thereof).

Keywords: Literary translation; Rapprochement; Dominance; Otherness; Destinies; Motives.

مقدمة:

تعدّ الترجمة الأدبية فعلاً إنسانياً شكلياً في عديد المراحل نواة أساسية لتطور الأدب بصفة عامة في عديد المجالات، خاصة في عملية نقل الثقافات وتلاقحها، فانتقال العلوم من لغة إلى لغة يحتاج أساساً إلى فعل الترجمة، ومن المسلم به أن الترجمة العلمية تختلف عن الترجمة الأدبية من منطلق طبيعة المادة المترجمة، حيث نجد أن ترجمة العلم تحتاج أساساً للتحكم في المصطلحات الخاصة بالمجال الذي تتم الترجمة منه وإليه، وهذا أمر يتأتى للمترجم عن طريق تعلم هذا العلم والمصطلحات المتعلقة به، أما الترجمة الأدبية فتحتاج إلى التمكن من اللغتين معاً، وتحتاج كذلك إلى الاطلاع على الثقافة التي أنتج فيها النص الأصلي، وكذا ثقافة اللغة التي سترجم إليها النص الأدبي، وهذا ليس بالأمر الهين خاصة باعتبار اللغة تحمل في طياتها حمولة ثقافية وحضارية تستصحها الأنساق اللغوية المبثوثة في النصوص الأدبية على وجه العموم، هذا باعتبار الأدب ينطوي على خصوصية لا نجدها في النصوص

الأخرى، وتتجلى هذه الخصوصية في عدة أشكال كاعتماده الوظيفة التعبيرية، والقدرة الإيحائية التي يتمتع بها، وكذا الشكل الفني الذي يجب أن يكون عليه النص الأدبي، إضافة إلى أن العبارة الأدبية تكون غالبا حمالة أوجه، ولا تُفهم من زاوية واحدة، أضف إلى ذلك تجاوز الأدب لفكرة الزمان والمكان، وكذا قدرته على نقل القيم الإنسانية في أشكالها المختلفة الماثلة في النصوص المترجمة¹، وحتى في لغتها الأصلية والتي غالبا ما تنقص حداثتها عندما تنتقل من لغة إلى أخرى لاعتبارات لغوية تتحكم فيها الخصوصية الثقافية لكل لغة.

عند الحديث عن الترجمة الأدبية يجب علينا تحديد المحور الذي نقصده في هذه الترجمة، فعندما يكون محور الترجمة من الشرق نحو الغرب تختلف النظريات التي ننظر بها إلى هذه الحركة، حيث نجد أن هذا الاتجاه يعطي الأولوية في تكوينه لاعتبارات الهيمنة التي يكرسها الغرب، هذه الهيمنة نجدها ماثلة في النص الأدبي من خلال تضمينه جملة من الإيحاءات اللغوية التي يجب أن يراعي المترجم وجودها ويعرف وظيفتها التي وضعت لأجلها، وعلى القارئ للنص المترجم أن يعرف هذه الحركة لأن منتج النص إذا كان من الغرب يضع نصب عينيه أن المنظور الذي يتناول به القضايا المتعلقة بالشرق يخضع لمبدأ التعالي في الطرح "ومن ثم نكون إزاء نوع من صراع الأطر والتأطيرات، والصراع على الموارد اللغوية المتاحة لنا، مثل الاستعارات والكنائيات واللطيفية، والمفارقة والسخرية والنكتة، والشعارات، والتهافتات، والعناوين والمقدمات"²، بناء على هذا فإنّ الأديب يصنع لنفسه أطرا يحاول تمريرها وفرضها على الجانب الآخر من منطلق الصراع الذي يعد النواة الأساسية لإنتاج النص الأدبي من البداية، وعلى هذا فالنص الأدبي في الغالب هو عبارة عن تنميطات موجهة نحو هدف معين يتحدد انطلاقا من جنسية الأدب، وبعد النظر في المحور الذي يوجه الفعل الترجمي يجدر بنا النظر في الأهداف التي ينشدها هذا الفعل، والتطورات التي طرأت عليها، فقد انطلق في بداياته بهدف الهيمنة وتكريس السطوة الغربية على الشرق، ليجد نفسه يتحول عن هدفه الأول بفعل الظروف التي أنتجت المناهج النقدية التي أتت في إطار ما بعد الحداثة، حيث استطاعت هذه المناهج إلى حد ما ترويض هذه الرغبة في الهيمنة وجعلتها تتجه نحو تلطيف الجو بين الشرق والغرب من خلال طرح قضايا تتعلق بالتعايش السلمي بين الأمم، والعلاقة بين الأديان، والدعوة إلى مبادئ الإنسانية التي تتأسس من منطلق هيئات عالمية تؤطرها كفاءات من مختلف الدول.

من هذا المنطلق ينبني قوام هذا البحث على تتبع مسار الترجمة في محورها، وتقسيم هذه المحاور على ضوء الإطار الزمني الذي شهده تطور كل محور، وكذا الدوافع التي حركت كل طرف، وسنكشف كذلك المسوغات التي أطرت هذه الحركة الترجمية التي عاشها الأدب، وعلى هذا فإن أول عنصر انطلقنا منه هو مسألة الهيمنة التي كانت بدايةً منطلق فعل الترجمة، لتجد نفسها تدخل معتركات أخرى كالتعايش السلمي بين الشعوب الذي أريد للأدب والحركة الثقافية أن تكون أهم روافده، ليكون عنوان الورقة البحثية "الترجمة الأدبية من طموح الهيمنة إلى آفاق الغيرية"

01/ مقارنة مفاهيمية: (الترجمة/ المواقفة).

1/ مفهوم الترجمة:

يتميز مفهوم الترجمة بالاتساع باعتباره يشغل على اللغة، من منطلق أنها فعل إنساني لا تنتفي عنه صفة النسبية وعدم الثبات، لأنها تتصل بعلوم عدة، فهي ترتبط بالعلوم الدقيقة، وبالأدب وعلى هذا الأساس يعرفها محمد أحمد منصور بأنها " نوع من النشاط البشري قام به الإنسان في مجتمعاته الأولى لتنظيم علاقته بجيرانه وتأمين أغراضه وتدير حاجاته، بسبب انسياب عناصر بشرية من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا، أو من جزء حركات الهجرة الفردية أو الجماعية العشوائية منها أو المنظمة أو نتيجة المصادمات الحربية بين الشعوب والأمم"³، هذا المفهوم قدم لنا نظرة عامة حول الترجمة، جمع فيه بين كل الفنون التي تتخذها الترجمة ميدانا للاشتغال، حيث ربطها بالنشاط البشري الذي يجمع فيه شتات العلوم المختلفة، لكن دراستنا تتخذ من الترجمة الأدبية مجالاً للدراسة، لهذا يجب أن نتطرق لمفهوم الترجمة في مجال الأدب، فالملاحظ في الترجمة بشكل عام أنها عبارة عن نقل للمصطلحات من لغة إلى أخرى بغية نقل العلوم والتقنيات من حضارة إلى أخرى بينما " الترجمة الأدبية تتجاوز ذلك جميعاً إلى مجال الفنون، ثم إلى مجال الفكر والثقافة، أي إن المترجم الأدبي لا ينحصر همّه في دلالة الألفاظ أو ما أسميه هنا بالإحالة (Reference) أي إحالة القارئ أو السامع إلى نفس الشيء الذي يقصده المؤلف أو صاحب النص الأصلي"⁴، يتضح أن الميزة التي تتسم بها الترجمة الأدبية هي اشتغالها على مجال الفنون، والفكر والثقافة، هذه المجالات لها خصوصيتها التي تميزها، والمتمثلة في كون هذه الفنون لا يمكن ضبطها بمصطلحات محددة كغيرها من العلوم، فالمترجم الذي يعمل على نقل نص أدبي من لغة إلى لغة أخرى عليه الانغماس أولاً في الحضارة والثقافة التي نشأ فيها النص الأصلي،

ومعرفة تفاصيلها الدقيقة ليتمكن من مقارنة النصين إلى حد يمكن قبوله من قبل النقاد والقراء، ومنه فإن الترجمة الأدبية أصعب وأعقد أنواع الترجمة، وتهدف عموماً إلى تحقيق التقارب بين الثقافات والشعوب، وترسيخ مبادئ الحوار والسلام بدل الصراع، هذا ما يجعلنا أمام مصطلح « المثقافة » ويحتم علينا المرور على مفهومها العام لنتمكن من تحديد وضبط حدود الدراسة في سياق عام واضح، وفي هذا الاتجاه يذهب أنطوان برمان في محاولته تحديد مفهوم الترجمة المتمركزة عرقياً إلى أنه: "إذا كانت الترجمة عبارة عن إلحاق، فإنها ستكون إلحاقاً للمعنى، وإذا كانت إحاطة بالمعنى، فإنها ستكون إلحاقاً بالضرورة... ليس على الترجمة إلا العمل بالحرف الميت، فهي تسعى للإحاطة به، من أجل إدراك الروح الحية والمعنى"⁵، وهنا إشارة صريحة إلى كون الترجمة عند الغرب وفي منشئها الذي تعود أصوله إلى الفلسفة اليونانية تتخذ من المعنى والدلالة المعيار الأول لجودتها، وأصالتها.

ب/ مفهوم المثاقفة:

يحيل مفهوم المثاقفة أول الأمر إلى ذلك الحوار الذي يدور بين الثقافات المختلفة عن طريق حركات مثل الترجمة، والنشاطات الثقافية ويمكن تعريفها من منظور آخر بأنها "رافد مهم تسعى كل أمة من خلاله إلى معرفة الآخر واستثمار ما لديه من قيم ومعطيات إنسانية وحضارية، كما إن الحضارة العربية الإسلامية لم تبلغ أوجها إلا عندما نجحت في التفاعل والتثاقف مع الأمم والشعوب الأخرى"⁶، من خلال هذا المفهوم يتبين لنا أن المثاقفة حركة طبيعية تحدث بين الثقافات المختلفة، لهذا فهي ضرورة ملحة في الوقت الراهن، ومن سبلها التواصل الحاصل على مستوى الشبكات التي وفرتها شبكة الأنترنت، كمواقع التواصل الاجتماعي التي تلقى رواجاً عالمياً منقطع النظير، وعندما نتحدث عن النظريات التي غزت الساحة الفكرية العربية؛ النظرية النسوية التي كان منبثها الأول فعل المثاقفة وأصلها يعود إلى الثقافة الفرنسية، وبالتحديد الكاتبة هيلين سيكسوس في مقالها "ضحكة ميدوسا" المنشور سنة 1975،⁷ وانتقل إلى الثقافة العربية عن طريق الحركية الكبيرة التي يعمل فعل الترجمة وتلاقح الحضارات على تجسيدها على أرض الواقع

وهذا ما ينجر عن العولمة التي جعلت العالم عبارة عن قرية صغيرة، ويعرفها روبرت ريدفيلد ووالف لينتون "تشمل المثاقفة جميع الظواهر الناتجة عن الاتصال المستمر المباشر بين أفراد ينتمون لثقافتين مختلفتين وما يترتب عن ذلك من تغيرات في الأنماط الثقافية

الأصلية عند إحداهما أو كليهما"⁸، وهنا تبرز أهمية الترجمة في نقل الوعي من أمة إلى أخرى، وبفعل هذا الاتصال الذي ينتج عن طريق الثقافة تستمر الحضارات في العطاء، ويتم كذلك تصنيفها بين متطور ومتخلف وكذا كتابة التاريخ، فالتاريخ يحفظ ويسجل كل منتج حضاري من شأنه تغيير مسار معين.

02/ الترجمة وتكريس الهيمنة:

سأيرت الترجمة الأدبية الأحداث الكبرى التي عرفها العالم في صراع الأقطاب (الشرق، والغرب)، فلا يمكن أن ننكر ضلوع هذه الأخيرة وتحيزها للقوى الكبرى في فرض منطقها المتعالي على الآخر، فالترجمة الأدبية كان هدفها الأساس تكريس هيمنة الأدبية للإمبراطوريات الكبرى على حساب الآداب الأخرى، فمن السذاجة أن نعتبر أن الهدف الأول الذي كانت تنشده الترجمة، هو نقل المعارف بين الثقافات والشعوب بغية تحقيق ما يعرف بحوار الثقافات، الذي دعا إليه العديد من المفكرين والفلاسفة أمثال (جيل دولوز، بيار بورديو، ميشيل فوكو، جاك دريدا...) في رفضهم المطلق للترجسية الذاتية والتمركز حول الذات.

لقد شكلت الترجمة في هذا السياق أهدافا تسائر طموح السلطة الغربية الساعية إلى فرض الأحادية القطبية، بما يوافق موقعها في الخارطة الجيوسياسية، لهذا لا يمكن أن نبرأ الأدب من الممارسات التي كانت تصدر عن القوى الكبرى في سياساتها الإقصائية نحو الشرق والشعوب المستضعفة "إن الصراع، بمعناه الأوسع، يشير إلى موقف يسعى فيه طرفان أو أكثر إلى أن يقوّض أحدهما الآخر لأنّ لدهما أو لدهيم أهدافا متضاربة، أو مصالح متنافسة، أو قيما مختلفة بشكل أساس. وبهذا المعنى، يمثل الصراع جزءا من الحياة اليومية وليس ظرفا استثنائيا"⁹، استنادا إلى هذا فقد تم حشر الترجمة في الصراع بين القطبين المتصارعين بحثا عن المركزية، فكل طرف كان يسعى إلى إثبات ذاته وتحييد الآخر ودفعه نحو الهامش، هنا وجب التنويه إلى أن ترجمة النص الشرقي كانت تخضع لمعايير محددة مسبقا وخلفيات إيديولوجية تفرضها السلطة على المترجم، لهذا لا يمكن أن نعتبر ترجمة النصوص العربية كانت غايتها معرفة هذا الأدب، واستبطان ما يختزنه من جمالية فنية وما يحتويه من مخزون ثقافي يعبر عن ثقافة أمة بكل ما شهدته وتراكم عندها عبر التاريخ، فعملية اختيار النصوص المترجمة كانت تقوم على الانتقائية حتى يجد فيها المهيمن الغربي تبريرا لادعاءاته.

وبما أن فعل الترجمة لم ينأ عن مختلف التوصيفات، والتنميطات الثابتة، التي كانت تُروجلها المخيلة الغربية عن الذات الشرقية لخلق تباين بين الشرق الغرب، إقراراً لمبدأ المفاضلة الغربي، فقد كان هذا الأخير يدعي أنه الأصل، ويحاول أن يثبت تفوق ثقافته وحضارته على الثقافات الأخرى، فراح يحفر في النصوص العربية التي تسجم مع طرحه ونقلها إلى ثقافته لتعزيز الهيمنة على الآخر من جهة، ولينال القبول عند من يتبنون الأفكار التي يأتي بها في هذا الإطار، وعلى النقيض من هذا فإن الفكر العربي يكرس طرحاً ينطلق من مبدأ الدونية¹⁰ نلاحظ أنه رغم التطور الحاصل في كل الميادين لاسيما الأدب، لازالت الدول العربية تعاني من عقدة الدونية أمام تفوق المستعمر في مجال الفكر والإبداع، وبخاصة الترجمة. وقد أصبحت عناصر العمل الأدبي الغربي وأقطابه وآلياته هي النموذج المثالي الذي يجب الاقتداء به...¹⁰ على هذا فإن الصراع يبرز من منطلق النظرة المتعالية التي يكرسها الغرب في مقابل النظرة الدونية التي ينظر بها الشرقي إلى نفسه، وكان هذا أحد أبرز الأمور التي كرسها الهيمنة، ويمكن هنا أن نستحضر بيت المتنبي:

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُرْحُ بِمَيِّتٍ إِلَّا مَ11

عند الحديث عن مسألة الترجمة نجد أنفسنا نلج إلى مجال الأدب المقارن من باب أن الأدب المقارن أضحى يعرف منافسة حادة من قبل بعض المباحث المعرفية؛ مثل الدراسات الثقافية والدراسات الترجمة.

وهذا ما سبقت الإشارة إليه، ونرجع تلك المنافسة، وذلك التهديد الذي يواجهه الأدب المقارن إلى أن هذه المناهج المعرفية كالبنوية، وما بعد البنوية، وما بعد الحداثة، ترتكز على أسس معرفية وسوسيولوجية أشمل وأكثر حصافة من تلك الأسس التي تشكل منطلقاً للأدب المقارن¹²، وعلى هذا الأساس فإنه من المفروض أن تكون الترجمة هي الوسيلة التي يمكننا من مساهمة الحركة الثقافية والفكرية في العالم بأسره، فالنظرة الواحدة التي يلقيها المرء على ما تنتجه الثقافة الناطقة باللغة الإنجليزية تجعله يقف متفاجئاً للأعداد المهولة من الكتب التي تصدرها دور النشر كل عام، هذا باللغة الإنجليزية، فكيف إن جعلنا المقاربة تتعداها إلى اللغات الأخرى كالفرنسية والألمانية، الإيطالية، الإسبانية وغيرها.

هذا الزخم من الإنتاج يشكل الحركة الفكرية والثقافية في العالم التي يتوجب علينا أن نسايرها ومواكبتها لهذه الحركة الفكرية والثقافية، لا تكون متاحة إلا عندما نقوم بفعل الترجمة عن الثقافات الأخرى، دون نفي معيار الانتقائية في الترجمة، حيث يجب على المترجم

أن يقوم بترجمة الكتب التي تخدم حضارته ويستفيد منها عامة القراء، ويتحاشى الوقوع في فخ خدمة منظور استشراقي يمهد لغزو ثقافي، وهذا ما يقع في الكثير من المرات التي يكون فيها المترجم لا يمتلك بعد النّظر الكافي لمعرفة المآلات التي يمكن أن تسير به بعض الأعمال – خاصة الأدبية منها- لأنّ الأدب هو المجال الأول الذي يمكن أن يحمل في طياته أنساقا مضمرة، تختفي وراء شعارات رنانة، في هذا السياق كانت الدراسات النقدية تمشي بالموازاة مع حركة الترجمة الأدبية باعتبار أنه "في سياق الدراسات الحضارية تتماهي الحضارات والهويات. ولأنها في سياقها ما بعد الحداثي، أصبحت أحد روافد العولمة، فقد اتسمت بأنها دراسات تعلو فوق المنظور الإقليمي (والوطني أيضا!) وتقيم المقارنات بين النصوص المنتمية إلى حضارات مختلفة، وتمتد لتشمل حقولا معرفية متعددة: كاللغويات، والنقد، والترجمة"¹³، ومن بين هذه الدراسات التي تناولت أوجه التأثير والتأثر، والاختلاف والتشابه كتاب "تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوجو" لروحي الخالدي، ومن بين النماذج التي تناولها بالدراسة ما يمكن أن نجده بين أبي العلاء المعري وفيكتور هوجو من تأثير وتأثر، حيث يصرح في كتابه سالف الذكر "كلاهما واسع المواضيع ومرجع في الثروة اللغوية، وكلاهما إنساني النزعة، يميل إلى التأمل والسير مع حكمة الحياة. غير أن ما لا يقنع هو تلك المقارنة بين مسرحية مولير «تارتوف» التي لها شكلها الفني الخاص بها وأغراضها الأخلاقية ومجتمعها الواضح في فئاته وقيمه وبعض أبيات من شعر المعري التي تميل إلى السخرية..."¹⁴ تناول هذا المنجز النقدي أواصر التواصل والتلاقح بين المنجز الأدبي في شقه التراثي، وهنا يمكن أن نميز بين فترتين متباينتين في حركة الترجمة الأدبية:

الأولى: كانت الأولى سابقة، وكانت مادتها الخام التراث الأدبي العربي القديم ممثلا في أعمال مثل: رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، و كليلة ودمنة، لابن المقفع، حكايات ألف ليلة وليلة وغيرها من الأعمال التي شكلت منهلا أدبيا كان له حضور بارز في لغات عدة إما عن طريق الترجمة، وإما عن طريق التأثير والتأثر، والملاحظ في هذه المرحلة أن المحور كان باتجاه (الشرق نحو الغرب).

الثانية: جاءت هذه المرحلة بداية من العصر الحديث، حيث تحول محور الترجمة والتأثير من (غرب، شرق) نحو (شرق، غرب)، وهذا يجعلنا نقر بأن موازين القوى تحولت كذلك، ومن بين الأعمال الغربية التي تمت ترجمتها رواية البؤساء لفكتور هوجو، ولم يقتصر

التأثر في الترجمة فقط بل تعداه إلى نقل المناهج النقدية والفلسفية، وحتى التيارات الفكرية، مثل الرومنسية، والوجودية، والبراغماتية.

تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى جزئية مهمة في قضية الترجمة - وهي المتحكمة في التوجه الفكري سواء للمترجم (للعمل الأدبي) أو لمنتج ومتلقي الخطاب بعد ترجمته - ألا وهي مسألة الإيديولوجيا وما تستدعيه من مفارقات تتحكم في نوعية وجودة النص المترجم، فالمترجم " يقف حائرا بين ولائه لإيديولوجيا معينة... ومع ذلك ليست الإيديولوجيا العامل الوحيد الذي يقرر استراتيجية المترجم"¹⁵

يتضح مما سبق أن مسألة الهيمنة في شقها الأدبي ترتبط أساسا بموازين القوى في كل مظاهرها (عسكرية، اقتصادية، سياسية، فكرية)، وكما هو معلوم فإن مسوغ الهيمنة هو الرغبة في التفوق وتكريس الثنائيات من قبيل (غالب/ مغلوب، متفوق/متخلف، مركز/ هامش، فاضل/ دوني...) فكل حضارة تعتبر نفسها ذات أحقية بالتغلب والسيطرة على الحضارات الأخرى من باب بسط النفوذ التحكم في الشعوب الأخرى¹⁶، بما أن مسوغ الهيمنة كان تكريس السيطرة في كل المجالات، خاصة الثقافية منها، ومنطلق الهيمنة هو التغلب في المجالات الأساسية في الحضارات والأمم، لهذا كان الأجدر بالدول الشرقية الاهتمام بالمجالات العلمية؛ التي من شأنها إحداث نقلة حضارية في شتى الميادين، لتتبعها الميادين الأخرى، وبعدها تجد الحضارة نفسها متبوعة بعد أن كانت تابعة على امتداد زمن طويل.

03/ الترجمة وتمثل أفاق الغيرية:

يمكن للأدب أن يؤدي وظيفته الإنسانية إن ظل محكوما بالجمالية والشعرية، ونأى بنفسه عن تمثيل رسالته السامية التي تهدف إلى لم شمل الشعوب على طاولة التعايش السلمي والتقارب الحضاري، وتقريب وجهات النظر في عديد القضايا التي ظلت إلى وقت طويل مدعاة للخصومة والاحتقان بين القوى الغربية والعالم الشرقي، لهذا سعت الترجمة لرأب هذا الصدع وفتح علاقات الغيرية على التقبل والتواصل والإنصات لصوت الآخر، ونبذ التمادي في التمركز حول الذات.

لقد كانت الترجمة سبيلا من سبل التواصل الحضاري تجلت فيها المثاقفة بشكل بارز، هذه الأخيرة تأتي بمعنى " التغيير الثقافي في الظواهر التي تنشأ، حيث تدخل جماعات من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة في اتصال مباشر، مما يترتب عليه حدوث تغيرات في

الأنماط الثقافية الأصلية في إحدى الجماعتين أو فيهما معاً¹⁷، ومنه فإن المثاقفة مكّنت الشعوب والأمم من الاطلاع على ثقافات بعضها البعض، والاستفادة من زخم المعارف والآداب المتراكم لدى الطرف الآخر، الأمر الذي حتّم عليهما القيام بمسارات تصحيحية على مستوى الأفكار التي تبنتها الذات الغربية على نفسها وعلى الآخر، والأمر ذاته ينطبق على محور الشرق. وشكلت الرحلة الأدبية ممثلة في الترجمة انعطافاً هاماً في مسار الدراسات النقدية والثقافية، التي تعنى بالغيرية، إذ جعلتها تنفتح على التواصل، وعصفت بمختلف التمثيلات الزائفة التي كان يوصف بها كل طرف نقيضه، في محاولة من للانتصار لثقافته، وتكريساً لهيمنته أو مجابهة الآخر والرد عليه ثقافياً من هذا المنطلق تكون "قدرة الترجمة والدور الذي تلعبه على المستويات الثقافية والرمزية بالنسبة لثقافات منتجة وأخرى مستهلكة، وعلى مستويات الهيمنة والتبعية، قدرتها على تحويل تلك الفروق الثقافية والرمزية إلى فروق اقتصادية ملموسة بالمعنى المباشر"¹⁸ لهذا يمكن الإقرار بأن الترجمة سايرت الطّروحات الجديدة التي تبنتها العديد من النظريات النقدية في ردها على الأحادية الفكرية التي تدثر بها الفكر الغربي، وعلى وهم الحضارة والموروث الثقافي الذي شكل مرجعية يتعصب لها أصحابها من العرب والشرقيين.

شكلت الترجمة حواراً ثقافياً جسدت فيه الذات رحلتها نحو الآخر، محملة بتراثها الفكري والحضاري لهذا كانت الرسالة التي تتغيّاها أسمى من مجرد الانفتاح على الآداب الأخرى، حيث كانت تنشّد تقريب وجهات النظر، ولملمة الشتات الذي لحق المواقف المتخذة من قبل أطراف النزاع، وكان للمثقفين الدور الفعال في هذا المسعى، تماشياً مع المشروع التّهضوي الفكري الذي يولي فيه إدوارد سعيد الأهمية القصوى للمثقف في صناعة الوعي وتغيير الواقع وتشكيل مآلات جديدة تنبني على فكر مُمنهَج ومؤطر من قبل النّخبة التي شكلتها التّراكمات التّاريخية للفكر العربي.

في هذا الصدد يصرح في كتابه المثقف والسلطة "ومن المهام المنوطة بالمثقف أو المفكّر أن يحاول تحطيم قوالب الأنماط الثّابتة والتعميمات الاختزالية التي تفرض قيوداً شديدة على الفكر الإنساني وعلى التواصل ما بين البشر."¹⁹، انخرط المثقفون في المساعي ذات النزعة الإنسانية وسعوا إلى توحيد الشعوب تحت مظلة التواصل الحضاري.

وراحت الترجمة تلعب دور الوسيط، وهنا عمد المترجمون إلى الابتعاد عن الانتقائية التي فرضتها السلطة الغربية على أتباعها، حين أرغمتهم على ترجمة نصوص بعينها، وتحول

النهج العام لهذه العملية، فبعدما كانت تسعى إلى الهيمنة صارت تتجه نحو فتح جسور التواصل والتلاقي مع الغير، غير أن الحوار الهادف والبناء بين الشرق والغرب لا يمكن أن يحقق أهدافه إلا إذا تجرّد كل طرف من الأحكام المسبقة التي يشكلها عن الآخر، وأولى خطوات تحرير فكر العداوة الذي يمثله الجانبان أن ينزع الشرقيون من مخيلتهم أن الحضارة المادية للغرب هي السبب الرئيس في مشاكلهم ونكساتهم، وأن يتخلص الغربي من عقده المتوارثة نحو الإسلام، وما ينجر عن الإسلاموفوبيا واتهامه بأنه سبب المشاكل وسبب الصراعات في العالم، لهذا يجب تبادل العلاقات في جو يسوده التقبل والاحترام بدل الإنكار والإقصاء²⁰، بناء على هذا لم تتجاوز الترجمة هذا الأمر في حركة المثاقفة الشاملة التي كانت تتطلع إليها، فقد سعت المدارس النقدية والأدبية إلى توظيف الفعل الترجمي في تخليص الفكر من التحيز الذاتي والأحكام الانعزالية عن الآخر، وسعت إلى استثمار الأدب في تجسيد مساعي الغيرية، لهذا لا يمكن إنكار الدور الهام الذي اضطلعت به الآداب المقارنة في عملية تلاقي الآداب وما ينجر عنه من تواصل ثقافي، وارتحالها من بيئتها إلى بيئات أخرى.

ولو أمعنا النظر في النصوص التي نُقلت من اللغة العربية إلى لغات أخرى، أو العكس لوجدنا كما معتبرا من النصوص التي تجسد هذا الطرح، جعلت الترجمة الفكر الإنساني يرتحل إلى أقطار عديدة يجسد عبرها أبهى صور التواصل التي تنتفي فيها الصّدامية وتقديس الذات، والتي تتخلص من نزعاتها وعصبياتها ومكرهاتها المسبقة "إن كل ترجمة هي بالأساس فعل ثقافي بالدرجة الأولى. وقد يكون هذا الثقافة إما بناءً في مضمونه وآثاره في أن يجلب معه ما يدعم التراث القومي في فكره وفنه بل في ماهيته كلها، وإما هداماً يند اللّون الطبيعي القومي الأول بشتى صفاته الأصيلة من شخصية، ودينية، وإيديولوجية، وغيرها"²¹ في هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن حركة الترجمة تأثرت هي الأخرى بإفرازات النظريات النقدية الحديثة التي تدعو إلى تقبل الآخر، وحملت على عاتقها دور تقريب وجهات النظر من خلال ترجمة الأعمال التي تغذي التواصل البناء.

بالعودة إلى الأدب العربي نجد العديد من الأعمال التي تُرجمت إلى لغات أخرى، وسعى أصحابها إلى النظر للآخر بوسطية واعتدال، ومن الأعمال التي جسدت هذا الطرح نذكر رواية "الأمير" لواسيني الأعرج، و"ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي" ورواية "جسر للبوح وآخر للحنين" لزهور ونيسي، ونجد عند هذه الأخيرة على سبيل الاستدلال، حينما جعلت بطل روايتها كمال يقع في غرام فتاة يهودية اسمها راشيل، وصورت لنا تلك العوائق التي واجهت كل

منهما من قبل عائلتهما، حيث تخاطبه قائلة "كمال حبيبي، دعنا من كل ذلك، ولنعش لحظتنا الجميلة دون أن نعكر صفوها بكلام أهلك وأهلي"²²، تمكنت زهور ونيسي من خلال هذه الرواية من مد جسور ثقافية بين الحضارات من خلال تفكيك خطاب الكراهية الذي يغذي الحركة الشعبية، خاصة في المجتمع الجزائري، باعتبار الرواية تتخذ من شوارع مدينة قسنطينة الجزائرية مسرحا لها، وعلى ما تمتلكه هذه المدينة من رمزية تاريخية وحضارية، أضافت إليها الروائية نزعة معتدلة في تصويرها للآخر المتمثل في الفتاة اليهودية التي جعلتها تقع في غرام شاب جزائري مشارك في الثورة التحريرية، وجعلت بين عائلتي طرفي القصة الغرامية صراعا دينيا بالدرجة الأولى وثقافيا وحضاريا، لتغلب في نهاية المطاف تلك المشاعر الصادقة التي ميزت علاقة كل من راشيل وكمال العطار، هذا العمل الروائي برحلته إلى الثقافة الغربية عن طريق فعل الترجمة يستثمر في تمرير وتمكين التواصل الحضاري ورسم صورة جديدة للعلاقات بين الأمم، تتصنف ضمن حركة الغيرية التي كانت من مخرجات التحول في الحركة الأدبية، وعلى الجانب الآخر كان للأعمال التي انتقلت إلى الشرق نفس الدور تقريبا، والمتمثل في تقريب الشعوب وتكريس نظرة معتدلة للآخر من قبل الطرفين، ونذكر هنا على سبيل المثال مسرحيتي « جان دارك » و « المليونيرة » لبرنارد شو حيث تناول هذا العمل إعجاب الروائي بالثقافة الشرقية، من خلال التصريح المباشر بهذا الإعجاب لشخص الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد رأى في نموذجا يُقتدى به في الجانب الخُلقي، والجانب القيادي والسياسي²³، شكل هذا نموذجا يسير في نفس النسق الذي سارت عليه الأعمال الأدبية التي أشرنا إليها في السابق.

خاتمة:

نُخْلِصُ في ختام هذه الورقة البحثية إلى مجموعة من النقاط التي تلخص مخرجات الدراسة ويمكن طرحها على النحو الآتي:

- إنَّ ما وصلت إليه حركة الترجمة كان حتمية فرضتها التطورات التي شهدها العالم في شتى الميادين عبر التاريخ، وهو ما يؤكد ارتباط الأدب بحياة الأمم، وتمثل الترجمة الأدبية مرآة عاكسة لهذه الحركية الأدبية.

- تحدّد اتجاه محور الترجمة من منطلق الغلبة، حيث كانت تتخذ اتجاه (غرب/ شرق) عندما كان الشرق مهيمنًا، وينعكس اتجاه المحور (شرق/ غرب) كلما تغيرت موازين القوى.
- تصدى العرب للهيمنة التي كرستها حركة الاستشراق، التي كان دورها زرع الأفكار الدونية في نفس العربي، وجعله ينهر بحضارة الغرب، عن طريق حركة المقاومة الثقافية التي قادها مفكرون عرب أمثال مالك بن نبي، محمد عابد الجابري، عبد الله العروي، وإدوارد سعيد.
- انطلقت حركة الترجمة في بداياتها من منظور الهيمنة، وكان يذكيها من الجانب الغربي نزعة التفوق وحب السيطرة، في مقابل النظرة الدونية التي كان يتمثلها العربي لنفسه.
- اتخذت الحركة الترجّمية منحى الغيرية عندما وجدت نفسها مجبرة على مسaire الطرح الفكري الجديد الناتج عن المناهج الفلسفية والنقدية، التي أتت في إطار ما بعد الحداثة، والنسقية التي ميزت النقد الثقافي.
- برزت خصوصية الترجمة الأدبية في تقديمها خدمات جليّة للحركة الثقافية العالمية حيث مكنت من الدخول في موجة المثاقفة والتواصل الحضاري التي يشهدها دعاة النزعة الإنسانية.

قائمة المصادر والمراجع:

I / قائمة المصادر:

- [1] زهور ونيسي، جسر للبوح وآخر للحنين، دار الطباعة العصرية، الجزائر، ط1، 2007.
- [2] أحمد بن حسين الجعفي المتنبي أبو الطيب، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1983.

II / قائمة المراجع:

- [1] أنطوان برمان، الترجمة والحرف أو مقام البعد، تر: عز الدين الخطابي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2010.
- [2] أندري لوفيفر، الترجمة وإعادة الكتابة والتحكم في السمعة الأدبية، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2011.
- [3] منى بيكر، الترجمة والصراع، حكاية سردية، تر: طارق النعمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2018.

- [4] محمد أحمد منصور، الترجمة بين النظرية والتطبيق، مبادئ ونصوص وقاموس للمصطلحات الإسلامية، دار الكمال للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 2006.
- [5] محمد عناني، الترجمة الأدبية بين النظرية والتطبيق، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، مصر، ط2، 2003.
- [6] عبد الرحمن النوايتي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2016.
- [7] جمال نجيب التلاوي، المثاقفة، عبد الصبور واليوت..دراسة عبر حضارية، تر: ماهر مهدي وحنان الشريف، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط1، 2005.
- [8] روي الخالدي، تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوجو، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ط1، 2013.
- [9] محمد شوقي الزين، الذات والآخر، تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، منشورات ضفاف، بيروت، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012.
- [10] إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، تر: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.
- [11] محمد شوقي الزين، الذات والآخر، تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع.

III/المجلات والدوريات:

- [1] فطيمة بن ربيعي، صورة الشرق في مسرحيتي (جان دارك) و(المليونيرة) ل"برناردشو"، مجلة اللغة العربية، جامعة الجزائر، مج، 24، ع1، 2021
- [2] درسي محمد أمين، الترجمة والمثاقفة... بين هجرة الذات وتأصيل الآخر، مجلة الإشعاع، جامعة سعيدة، ع5، 2015.
- [3] محمد جعير، المثاقفة بين الترجمة والعولمة، مجلة جسور المعرفة، جامعة قسنطينة، 2018، مج:4، ع:2، 2018.
- [4] سارة بوزرزور، الترجمة والمثاقفة، مجلة البدر، جامعة بشار، تر: سارة بوزرزور، مج:9، ع7، 2017، ص210.
- [5] هارون عيساوي، في الترجمة الأدبية، التراث الأدبي العربي، مجلة آفاق علمية، جامعة تامنغست، مج:13، ع3، 2021.
- [6] رواء نعام محمد، المثاقفة والمثاقفة النقدية (في الفكر النقدي العربي)، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، الكويت، مج:7، ع3-4.
- [7] فاطمة عليوي، النص الأدبي بين ذاتية النقل وخصوصيات الأصل، مجلة دفاتر الترجمة، معهد الترجمة، جامعة الجزائر 2، مج:25، عدد خاص.

التهميش والاقتباس:

- ¹ - ينظر، فاطمة عليوي، النص الأدبي بين ذاتية النقل وخصوصيات الأصل، مجلة دفاتر الترجمة، معهد الترجمة، جامعة الجزائر 2، مج: 25، عدد خاص، ص 223-224.
- ² - منى بيكر، الترجمة والصراع، حكاية سردية، تر: طارق النعمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2018، ص 33.
- ³ - محمد أحمد منصور، الترجمة بين النظرية والتطبيق، مبادئ ونصوص وقاموس للمصطلحات الإسلامية، دار الكمال للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 2006، ص 19.
- ⁴ - محمد عناني، الترجمة الأدبية بين النظرية والتطبيق، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، مصر، ط2، 2003، ص 6.
- ⁵ - أنطوان برمان، الترجمة والحرف أو مقام البعد، تر: عز الدين الخطابي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2010، ص 51.
- ⁶ - رواء نعاس محمد، المثاقفة والمثاقفة النقدية (في الفكر النقدي العربي)، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، الكويت، مج: 7، ع 3-4، 2008، ص 175.
- ⁷ - ينظر، عبد الواحد رحال، الكتابة الأنثوية من التأسيس الغربي إلى الخطاب النقدي العربي، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، مج 16، ع 1، جوان 2023، ص 441.
- ⁸ - سارة بوزرزور، الترجمة والمثاقفة، مجلة البدر، جامعة بشار، تر: سارة بوزرزور، مج: 9، ع 7، 2017، ص 210.
- ⁹ - منى بيكر، الترجمة والصراع، حكاية سردية، مرجع السابق، ص 52.
- ¹⁰ - هارون عيساوي، في الترجمة الأدبية، التراث الأدبي العربي، مجلة آفاق علمية، جامعة تامنغست، مج: 13، ع 3، 2021، ص 312.
- ¹¹ - أحمد بن حسين الجعفي المتنبي أبو الطيب، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1983، ص 164.
- ¹² - ينظر، عبد الرحمن النواقي، السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2016، ص 59-60.
- ¹³ - جمال نجيب التلاوي، المثاقفة، عبد الصبور واليوت. دراسة عبر حضارية، تر: ماهر مهدي وحنان الشريف، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط1، 2005.
- ¹⁴ - روعي الخالدي، تاريخ علم الأدب عند الإفريج والعرب وفيكتور هوجو، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، ط1، 2013، ص 15.
- ¹⁵ - أندري لوفيفر، الترجمة وإعادة الكتابة والتحكم في السمعة الأدبية، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2011، ص 62.
- ¹⁶ - ينظر، محمد شوقي الزين، الذات والآخر، تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، منشورات ضفاف، بيروت، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص 9.

- ¹⁷- محمد جعير، المثاقفة بين الترجمة والعودة، مجلة جسور المعرفة، جامعة قسنطينة، 2018، مج:4، ع:2، 2018، ص35.
- ¹⁸- منى بيكر، الترجمة والصراع، حكاية سردية، مرجع سابق، ص42.
- ¹⁹- إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، تر: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص19.
- ²⁰- ينظر، محمد شوقي الزين، الذات والآخر، تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، مرجع سابق، ص66-65.
- ²¹- درسي محمد أمين، الترجمة والمثاقفة، بين هجرة الذات وتأصيل الآخر، مجلة الإشعاع، جامعة سعيدة، ع:5، 2015، ص111-112.
- ²²- زهور ونيسي، جسر للبوح وآخر للحنين، دار الطباعة العصرية، الجزائر، ط1، 2007، ص74.
- ²³- ينظر، فطيمة بن ربيعي، صورة الشرقي في مسرحيتي (جان دارك) و(المليونيرة) ل"برناردشو"، مجلة اللغة العربية، جامعة الجزائر، مج:24، ع:1، 2021، ص755.